المؤسسة الوطنية للجنون ...

بقلم سميح القاسم

مسرحية ذات اربع حركات مدروسة جيدا وحركة خامسة حتمية

اهداء : الى المدنيين والعسكريين من كل الاعمار ..

الحركة الاولى

(مكتب انيق عليه جهاز تلفون ومروحة وادوات مكتبية ثمينة . وراءه رفوف للملفات ، وامامه مائدة عليها مزهرية وزجاجة ويسكي ، وتحيط بها مقاعد جلدية سوداء ... على الجدار الخلفي صورة كبيرة لدماغ الانسان تخترقها من اعلاها الى اسفلها علامة سؤال قائمة الزوايا. على طرف المكتب يجلس رجل في حوالي الستين من العمر ، اشيب الفودين انيق المظهر ، وتنم ملامحه عن انتمائه الى اصحاب المكانة الاقتصادية العالية ـ هو صاحب مصنع لاجهزة الابحاث السيكولوجية)

الصناعي (ينهض من مكانه ويدنو من مقدمة المسرح بمصاحبة نفير ابواق ، ويخاطب الجمهور بلهجة ودية ..) :

ليس المهم هو اسمي .. او اسم الرجل الذي اقوم بدوره امامكم .. المهم هو قضية ذلك الرجل . وذلك الرجل لا اعرف الان مكانه بالضبط ، فقد يكون وراء مكتبه الفخم الذي يشبهه هذا المكتب الى حد ما ، وقد يكون في جلسة مالية مع مدير البنك ، وقد يكون في حفلة تعارف خبيثة ، مع شلة من زملائه المحليين والاجانب ، في احد الفنادق الفخمة الشاهقة ، في عاصمة ما من عواصم العالم . وقد يكون بينكم .. هنا .. في هذه القاعة .. يشاهد مسرحيتنا المتواضعة ، ليستكتب من ثم احد عمالقة القلم ، العاملين في دائرة الادب والدعابة التابعة لشركته ، مسرحية مضادة يغمر بها اسواق الفكر الحر (مغيرا لهجته) يستطيع من شاء منكم ان يضع كلمة الحر بين اربعة اقواس صغيرة ـ (يعود الى لهجته السابقة) ولعله هنا ، لينظم جماعات من رواد المسرح الاحتياطيين ، تأتي بتذاكر مدفوعة الثمن سلفا ، لتقذفنا بالخضار المتعفنة والبيض الفاسد ..

سيداتي . آنساتي . سادتي ،

وقبل دخولنا صلب الموضوع يتحتم عليّ ان ابدي ملاحظة قد تبدو لكم ، لاول وهلة ، جانبية ومقحمة بصورة قسرية ، وقد يعتبرها الاساتذة النقاد خللا في البناء المسرحي . لكنني في الواقع ، اعيرها اهتماما خاصا . وما دمت الان المسيطر الوحيد على خشبة هذا المسرح ، وعلى الميكروفونات ، المرئية منها وغير المرئية ، فلا يسعني الا ان اقول كلمتي ، ولتكن ردود الفعل ، كما تشاؤون ، وكما يشاء حضرات الاساتذة النقاد .. الملاحظة ، حول المؤلف . اعتقد انني اعرفه جيدا رغم انه لا تربطني به اية وشيجة .. ومن اهم الامور التي اعرفها عنه ، انه لا يحفظ مواعيد الصلاة ، ويعتنق افكارا تسبب عسر الهضم للشادة اصحاب الصناعات الخفيفة والثقيلة . ولما كنت اعرف حملات الدعاية المعادية لافكاره ، والتي يشنها فرسان البورصة بشكل مثابر ومنهجي ، فانني اخشى ان تكون لدى بعضكم افكار ومواقف مسبقة بالنسبة للمسرحية والمؤلف . ان من شأن الافكار والمواقف المسبقة ان تشوش عملية التبادل بين الجانبين ، لذلك فانا ادخل لارجوكم جميعا ان تحلوا قليلا ربطات اعناقكم ، وان تفكوا الازرار الاولى من ياقاتكم ..

وبعد ،

(يخرج من جيب معطفه نظارة يضعها على عينيه بصورة تمثيلية، ويخترق باصبعه الوسطى اطار الزجاج ، ليفهم الجمهور ان النظارة بدون زجاج .. ثم يعود الى المكتب ويجلس وراءه .. يتنحنح ويواصل الكلام) .

لم يعد الوضع كما يرام . الناس اقل جنونا ، لان الامور تسير في مجاريها الطبيعية . ويوما بعد يوم يتلاشى الاهتمام بالاجهزة الالكترونية للبحث السيكولوجي ، التي تنتجها مصانعي ذات التقاليد والخبرات الممتازة .. بت اخشى ان يكون لي مصير الحيوانات الاسطورية المنقرضة .. لكن ثقوا ، انني لن ارضى بمثل هذا المصير عن طيب خاطر ..

اجل ، لم يعد الوضع كما يرام .. ارباحنا تتضاءل ، وهؤلاء العمال الوفحون يجدون في انفسهم الجرأة الكافية ليصرخوا في وجهي (مقلدا العمال الغاضبين) : لن نتنازل عن حقوقنا ! ستدفع علاوة الغلاء ، والا ! (بحقد بارد) : والا ماذا يا اولاد الكلب ؟!

هه .. حقوقهم !.. « ستدفع » !.. ويقولونها بلهجة الآمر ، وكأنهم شركائي في مصانعي ! (مغموما) لن اغفر لذلك الفوغائي الذي زعق في وجهي دون ان يطرف له جفن (مقلدا بصوت مرتفع) : لا يهمنا ان تحول مصانعك الى انتاج علب السردين او الاحذية ! المهم ان نعمل وان نعيش كما يجب ! (بمرارة) « كما يجب » .. لو ان هؤلاء السذج يقرأون التاريخ ، لعلموا ان اجدادهم عاشوا « كما يجب » فعلا ... الخبز والماء ، والسوط على ظهورهم المصفحة بالبثور والقاذورات .. (يذرع المكتب قلقا ومهموما) كأنهم شركائي ؟!

(قرع على الباب . يواصل الصناعي ذرع المكتب) من هناك ؟ ادخل ! (يدخل رجل نحيل اصلع ، يبدو وكأنه مصاب بداء مزمن ؛ لشدة شحوبه ووهنه ـ هو موزع الاجهزة التي ينتجها الصناعي)

الصناعي (مستخفا) : اهذا انت ؟. ماذا وراءك من اخبار ايها الحنش الجشع ؟

الموزع (بلهجة شاكية خبيثة) : ان جمال سكرتيرتك لا يمكن ان يغفر لها غباءها ! للمرة العشرين تهينني هذه الفتاة ..

الصناعي (ساخرا) : هذه المرأة ..

الموزع : حسنا ، فلتكن قردة .. المهم انها تحاول دائما منعي من الدخول عليك ، ما لم تستأذن لي هي بنفسها .. هه هؤلاء الكتبة المخلصون كالكلاب ؟

الصناعي : هل جئت لتحدثني عن الكتبة والكلاب ؟.. سألك عن الاخبار !

الموزع : كل شيء ، كما تشتهي يا عزيزي . الشمس تشرق وتغرب كعادتها . الناس بروحون ويجيئون كعادهم .. (بخبث) ومخازني مليئة باجهزتك ، كعادتها ، ولا احد يريد ان يشتري ! (محذرا) ليكن واضحا لك انني لا استطيع الاستمرار في هذا الوضع .. واذا كانت المحاريث البدائية اكثر رواجا من اجهزتك الالكترونية ، فلن يكون امامي مفر من التحول الى الاتجار بها ولن يكلفني الامر اكثر من ثمن لافتة جديدة ، واعلان عن فوائد المحاريث البدائية ، في احدى الصحف واسعة الانتشار !

الصناعي : انك تتكلم بانانية وغباء واضحين. فهل تعتقدانه من المعقول اغلاق مصانعي وتصفية اجهزتي بهذه البساطة ؟ وهل فكرت جديا بجدوى تحويل مخازنك عن الاتجار بمصنوعاتي ؟ ان الارباح التي تحققها من بيع مئة محراث في اليوم ـ على مر العام ـ لا تساوي الارباح التي تحققها من بيع جهاز واحد في العام .. تتكلم ايضا عن الرواج ، وكانك غر مبتدىء في فنون الصناعة والتجارة .. فلتكن اذناك كاذني الحمار حين اتكلم اليك ، وليكن عقلك كالاسفنجة .. (مستوعبا) الرواج ، الرواج ، هه .. ومن الذي يبت في امور الرواج هذا ، ان لم نكن نحن ؟ (محاولا افهامه) وعلى اية حال ايها العزيز ، حين تكسد بضاعة ما ، فلن يكون الحل القاءها في البحر ، بل تقديمها الى زبائنك الكرام من جديد ، في حلة جديدة ، واذا اقتضى الحال ، فباسم جديد ايضا .. فاذا نحن تركنا زبائنك الطيبين يتصرفون على هواهم ، فسنكون في موقف حرج .. المهم هو القاعدة ايها الصديق ، وتقول القاعدة : قدم للزبائن ، لا ما يحتاجون ، بل ما يشتهون !

الموزع (بعصبية) لكنهم يتخلصون من جنونهم بشكل مذهل ! انهم يعرضون عن متاعنا ، وارباحنا تنخفض .. افهم ؟ ان ارباحنا تنخفض بصورة مثيرة ، وعلينا ان نفعل شيئا ما !

الصناعي (بهدوء فلق) : ان ارباحك من ارباحي ايها السيد ، وارباحي من ارباحك ايها الحنش . ما يقلقك يقلقني ، وما نحلم به احلم به . أنت على حق حين تدعو الى عمل شيء ما .. لكن يجدر بك ان تكون كالقطار الذي يدرك دائما انه لا محالة واصل محطته الموعودة، رغم كل الصعوبات والعقبات التي تعترضه .. اصغ الي جيدا ايها الصديق . لدي فكرة مذهلة وناجعة ورابحة الى ابعد حدود الارباح.. تستطيع ان تنام الليلة ملء جفونك ، وغدا يبت في الامر مجلس ادارتنا الموقر . فالى اللقاء غدا في مثل هذا الوقت .. (يتفرس فيه الموزع ببلاهة ، بينما ينشد هو) :

أشجارنا الذكيّه
تحسن الانتصاب
حين تدق الباب
زوبعة غبيّه !

نحن الندى والدم
والحب والبغضاء
اذا عطشنا اليوم
نشرب دهر الماء !

في يدنا الزمام
وصوتنا مشيئه
فليحمل الزحام
عواقب الخطيئة !

(يضحك بهمجية ، ثم يغمز بعينه الموزع ، بكثير من الدهاء . يعتم المسرح ، ولكن صوتا يأتي من القاعة فجأة) :

الصوت : اشعلوا الضوء ، اشعلوا الضوء ! (يخرج رجل من بين المتفرجين ويهرع بخطى عسكرية نحو خشبة المسرح . يعود الضوء فيظهر الصناعي على خشبة المسرح على وجهه ملامح الحيرة) .

الرجل : (يخرج بطاقة من جيبه يريها للصناعي ويوجه اليه كلمات لا يسمعها الجمهور)

الصناعي : أجل سيدي . أجل ، لدينا اذن بعرض هذه المسرحية. الاذن موجود في ملفات ادارة الفرقة وتستطيع التأكد من ذلك بنفسك !! (يعتم المسرح)

الحركة الثانية

(المكتب نفسه . علامة السؤال الكبيرة على صورة الدماغ ، مرسومة بخط متعرج . بجانب هذه الصورة ، لوحة العشاء السري، بحجم كبير .. الصناعي جالس وراء مكتبه ومن حوله الموزع وأعضاء مجلس الادارة)

الصناعي (ينهض ويقف في مواجهة الجمهور) : ارجو حضرات المتفرجين التزام الصمت والانتباه . جلستنا بدأت ، ومشكلتنا هذه ، التي نتدارسها مع السادة اعضاء مجلس الادارة ، على غاية من الاهمية ، ليس بالنسبة لنا نحن الذين نقوم بهذه الادوار ، فحسب ، بل بالنسبة لكم ايضا ، وشكرا . (يعود الى مكتبه ويخاطب اعضاء مجلس الادارة) : جرت العادة على ان أقدم لكم تقريرا حول شؤون الانتاج والتسويق ، وان اسمع منكم الى تقرير عن شؤون العمل . لكن هذه الجلسة الطارئة تقتصر على بحث الموقف الخطير الذي تواجهه أجهزتنا . فالسوق تتقلص امامنا يوما بعد يوم. ببساطة ، انخفضت نسبة الجنون بين مواطنينا الاعزاء ، ومواهبكم الممتازة لم تعد رائجة كما كان الوضع سابقا . وتعلمون ، بالطبع ، أنني ، شخصيا ، لا أعلق أهمية كبيرة على المواهب ، ان كانت لا تترجم الى شيكات . ولعله واضح لكم ايضا انني لا اتراجع امام اية عقبة .. (بقسوة) فانا أومن بان كل الطرق يجب ان تؤدي الى جيبي !

الموزع (يبتسم بمكر) : وتمر بجيبي انا أيضا !

الاعضاء (بصوت واحد) : ولا شك في ان جيوبنا تقع على أرصفة تلك الطرق !

الصناعي : تستحقون التقدير أيها السادة ، ما دمتم تدركون ان المصلحة مشتركة ، وخدمة هذه المصلحة يجب ان تكون مشتركة أيضا . في سبيل هذه المصلحة العامة ضحيت بما لا يستطيع أحد انكاره علي (يتفرس فيهم) . واليوم أيها السادة ، نرى بما لا يقبل الشك ، ان مصلحتنا في خطر .. (يقاطعه صوت من القاعة) .

الصوت : نريد ان نعرف بوضوح وحسم ، موقفكم من الامم المتحدة وقرارات مجلس الامن !

الصناعي (وكأنه لم يسمع شيئا) : أجل ان مصلحتنا في خطر .. ولذا لم ابخل عليها بأعصابي وفكري . وبعد جهد طويل وتفكير شاق توصلت الى فكرة جيدة تجنبنا الكارثة الاقتصادية ، وما علينا الآن ، الا ان نشرب نخب هذه الفكرة ، ومن ثم اشرحها لكم..

(يخف الموزع الى زجاجة الويسكي ويأخذ في ملء الكؤوس المحيطة بها) .

أحد الاعضاء : ولكن كيف نشرب نخب فكرة لم نسمعها بعد ، ولم نقتنع بنجاعتها ؟

الصناعي : نشرب الآن ، لتكونوا في وضع أفضل لاستقبال هذه

الفكرة ، واذا لم ترقكم ، نشرب مرة اخرى ، وثقوا بانكم ستتحمسون لها في النهاية !

(يتناولون الكؤوس ويجرعونها)

أحد الاعضاء : حقا انها فكرة رائعة !

آخر : مدهشة !

ثالث : عبقرية تماما !

(الصناعي يرافق تعليقاتهم بابتسامة راضية ، ثم يدق المكتب بكفه) :

الصناعي : الآن ، الى الفكرة ، ايها السادة ! (يتنحنح ويحل رباط عنقه قليلا) .. لقد تحدثت في الموضوع الى صديقي وزير المواصلات ..

احد الاعضاء (مقاطعا) : وما شان وزير المواصلات في أجهزة البحث السيكولوجي ؟

الصناعي (متضايقا) : صمتا . صمتا . دعوني اواصل الكلام.. (بلهجته السابقة) ووزير المواصلات تحدث الى صديقه وزير المالية..

الموزع : اهه .. لقد اقتربنا !

الصناعي (دون ان يعير الموزع أي انتباه) : ووزير المالية تحدث الى صديقه القديم ، من ايام الحرب ، السيد الجنرال وزير الشؤون الاجتماعية .. (يراقب الانطباع المنكون على وجوههم .. تند عن الجميع اصوات الدهشة ويتبادلون نظرات الاعجاب) .

الصناعي (يضحك بخيلاء ثم يعود الى الجدية) : وغدا تقرأون في الصحف نبأ مثيرا (يقرأ كأنما في صحيفة) : « قررت وزارة الشؤون الاجتماعية ، تبني المشاريع الوطنية لرعاية المرضى النفسانيين، وتحمست وزارة المالية للفكرة ، فأعربت عن استعدادها لتمويل هذه المشاريع ، وتقديم الهبات المالية للمبادرين . ولم يكد وزير المواصلات يسمع بهذه النية الانسانية ، حتى أعلن التزام وزارته بتأمين سبل المواصلات اللازمة ، وكافة وسائل النقل المريحة ، للمرضى ولاصحاب المشروع ... » .

(تسود الدهشة وجوه المجتمعين)

لن ينتهي النبأ هنا ايها السادة ، فما دمنا نحن اول المبادرين الى هذا المشروع ، فسيكتب محررو الصحف مقالات ضافية عن نشاطاتنا الحميدة في سبيل الازدهار الاقتصادي والعمراني ، وسيطالبون برفعنا الى المراكز القيادية في الدولة ، لما نبديه من اهتمام بشؤون الشعب وقضاياه الحيوية ، ولقدرتنا على تحمل المسؤوليات التي تفرضها المناصب العالية .. (يتهامسون ويفركون أكفهم بفرح ... يشير اليهم بكلتا يديه ، مهدئا وملفتا للانتباه) ... وفي حالة تنفيذنا هذا المشروع ، نكون قد ضمنا لانفسنا تحقيق ارباح مثلثة : فاولا ، نوظف اموالنا المدعمة من الدولة ، في بناء مشروع المارستان ، ونبذل اقصى جهودنا للحصول على اكبر المساعدات، ولتقليص نفقاتنا الى ادنى حد .. والفرق بين المساعدات وبين النفقات يكون ربحا خالصا لنا .

هذا أولا . وثانيا ، نسعى لان يكون المارستان حديثا الى ابعد حد ، وهذا يعني تطوير احتياجاته حسب اجهزتنا ، فنكون قد ضمنا تصريف اجهزتنا . ومن ثم نستغل هذا النجاح للبحث السيكولوجي بدعاية كبيرة ، بحيث يصبح هواية شعبية في الدولة بأسرها ، وتتسع دائرة الطلب حول اجهزتنا الموفقة ..

هذا ثانيا . وثالثا ، حين ترى الاقطار المجاورة مدى النجاح الذي حققناه ، ستسارع سفاراتها الى طلب المساعدة منا ، لاقامة مشاريع مماثلة لديها . وهنا يجدر بنا الحذر ، فان الاقطار التي لا يوجد بيننا وبينها تمثيل دبلوماسي ، قد تلجأ الى وسائل الجاسوسية ، لسرقة خرائطنا واسرار مصانعنا . على أية حال ، نترك هذه المسألة لوزارة الشرطة !

الجميع : يا للدقة في التخطيط !

الموزع : ويا لبعد النظر الثاقب ! (بحماس) فلنشرب كأسا اخرى نخب هذا الذكاء الخلاق ! (يخف الى ملء الكؤوس ، وسرعان ما تنصب في الاجواف دفعة واحدة)

الصناعي : أجزم ان أحدا منكم لم يفكر في نقطة هامة ، لا يعقل انجاز المشروع بدونها ! (يرن جرس التلفون . يتردد الصناعي ثم يرفع السماعة) .. ماذا تريدين بحق الشيطان ! تعلمين انني مشغول الى درجة الاختناق !.. وماذا تريد زوجتي ؟.. مريضة ! دائما مريضة .. فلتذهب الى الطبيب الذي تختاره ، وأنا أصلي من أجلها .. (يواصل الكلام بالتلفون دون ان يصل صوته الى الجمهور، بينما ترتفع اصوات من خارج المسرح)

الاصوات : مريضة ! مريضة ! اجل مريضة ! لن ينفعها أي طب. ولن تجديها صلاتك نفعا .. المرضى في كل شيء حولك .. المرضى في اعماقك .. والحطابون يشحذون فؤوسهم ، وسرعان ما تنهال الشفرات الحادة على الجذوع النخرة ... المرضى هنا ، وهنا الحطابون !

(يغلق الصناعي سماعة التلفون بنزق ، ويواصل كلامه السابق) .. ها ! هل ادركتم ما هي النقطة الهامة التي فاتتكم ؟ (مقرعا) .. لا ! طبعا لا .. لانكم لا تفكرون الا في ارتفاع مرتباتكم وأرباحكم .. (يهز رأسه باستخفاف) .. تحدثنا عن المارستان وعن الاجهزة واعجاب الاقطار المجاورة .. ولكن ماذا بالنسبة للمجانين ؟ ألا تعتقدون اننا بحاجة الى مجانين يملأون المارستان العتيد !

أحد الاعضاء : يكفي ان نجمع المجانين الموجودين في البلاد لنحقق ما نريد !

الصناعي : لا .. هذا لا يكفي ، لسببين : الاول ، اننا كلفنا دائرة الاحصاء بدراسة الموضوع ، وكانت النتيجة ان العدد ضئيل جدا . والسبب الثاني ، هو ان بعض الاسر تؤثر الاحتفاظ بأبنائها المجانين لانها تحصل على المساعدات المباشرة من وزارة الشؤون الاجتماعية ..

الموزع : السبب الاول ، يمكن الغاؤه بواسطة حملة دعائية كبرى لتشجيع الجنون .. والصحف الكبرى على استعداد ـ مقابل الاجر المناسب ـ للقيام بهذه المهمة ! اما السبب الثاني ، فهو الآخر يمكن الغاؤه بسهولة (بلهجة تآمرية) .. تتصل بصديقك وزير المواصلات ، وهو بدوره يتصل بصديقه وزير المالية ، الذي يتصل بصديقه وزير الشؤون الاجتماعية ، فيصدر مرسوما تلغى بموجبه كافة المساعدات المباشرة الى الاسر التي ترعى اخوتنا المجانين .. وهكذا تهرع تلك الاسر الى مكاتبنا ، وتكون مكاتبنا قد أعدت سلفا لاستقبالها ..

الصناعي : خبث ناضج لا بأس به .. لكن هناك سرا آخر لم أطلعكم عليه بعد .. فان وز ... (يرن جرس التلفون فيرفع السماعة متأففا) .. والآن ، من هناك ؟ أهي زوجتي أيتها السكرتيرة الموهوبة؟ ما هذا الهراء ؟ يطالبون بدفع الاجور المستحقة ؟ اصرفيهم فورا قبل أن أفقد اعصابي .. يستطيعون ان ينتظروا يوما آخر .. لياكلوا اقفية بعضهم حتى الغد .. يلقي السماعة مكانها بغضب .. (الى المجتمعين) مصاصو دمائنا هؤلاء .. نعطيهم الاصبع فيطالبون باليد كلها !

أحد الاعضاء (مشجعا) : قلت ان هناك سرا لم تطلعنا عليه بعد ! (يبدو الصناعي مستغرقا في التفكير ، بينما ترتفع اصوات من الخارج)

الاصوات : وباء الغلاء يتفاقم ! قائمة الاسعار ولائحة الموتى ! رؤيا يوحنا في الافق . رؤيا يوحنا في الشوارع والساحات . رؤيا يوحنا على الاعتاب ... الخلاص ! الخلاص !

الصناعي (يفيق من ذهوله) : هه .. اين وصلنا ؟ السر .. آه السر .. قلنا ان وزير التربية والتعليم ابدى اهتماما بالغا بالمشروع ، وقرر ان تدفع لنا وزارته مبلغا معينا عن كل مجنون

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٧ ـ

المؤسسة الوطنيـــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٧ ـ

تستوعبه مؤسستنا .. ومن هنا ، ايها السادة ، فنحن بحاجة الى اكبر عدد من المجانين .. وحتى يتوفر لنا هذا العدد ، لا يمكـــن الاكتفاء بالاعلانات والمقالات الصحفية المشجعة .. يجب ان نبـــادر بانفسنـــا ..

احد الاعضاء : وماذا نستطيع ان نفعل ؟

الصناعي : نستأجر (يتبادلون نظرات غير فاهمـــه) اجل ، نستأجر ما نريد من المجانين .. اقصد ، من العقلاء الذين يقبلون القيام بدور المجانين مقابل اجرة معينة .. (دهشة على وجـــوه الجميع مرفقة بأصوات التعجب) وأقترح ان تتم الاتفاق بيننا وبينهم على اساس دفع الاجور مرة كل سنتين ونصف السنة ، او كل ثلاث سنوات ، بحيث لا يتمكنون من مغادرة المارستان في اللحظـــة التي برتأونها ! (يتتبع انر كلامه على وجوههم ، ويشجعهم بابتسامة خفيفة على ابداء آرائهم)

الموزع : يا للسماء ! انك شيطان رجيم يا عزيزي !

احد الاعضاء : منتهى الحكمة والذكاء !

عضو آخر : هكذا فليكن اصحاب الاعمال !

الموزع : كأس أخرى . نخب الالمعية (يهرع الى الكؤوس)

الصناعي : وقبل ان نشرب هذه الكأس ، اود ان اطمئنكم بأن افتتاح المشروع سيكون في بداية السنة المالية الجديدة !

الجميع (يهتفون) : برافو .. برافو .. (يفرغون الكؤوس في اجوافهم) .

(يعتم المسرح)

الحركة الثالثة

(احدى غرف المارستان . واجهتها من القضبان الحديدية ، في وسطها بوابة مصنوعة من القضبان الحديدية نفسها ، وعلى بابهـــا قفل ضخم يتخذ حجما كاريكاتوريا . في طرف المسرح ، على مقربة من الواجهة الحديدية يقوم مكتب لتسجيل المجانين بالاجرة ، ووراءه أحد اعضاء مجلس الادارة وقد امسك بالقلم وكدس امامه الاوراق ، استعدادا لاستقبال طالبي التسجيل .. يميل بمقعده الى الـوراء ، وينشـــد)

عضو مجلس الادارة :

لكل شيء ثمن .. والموت بالمجان
فاقبلوا في الوقت
تجتنبون الموت
يا أيها الاخوان !

المجد للآدام والرغيف
باسمهما اوجاعنا تهون
وتقبل الجنون
وكل ما نفعله باسمهما ، شريف
فاقبـلوا في الوقت
تجتنبون المـوت
يا أيها الاخوان !
لانني من مجلس الاداره
أعرف سر الصيد والشباك
أعرف ان قمة الحضاره
في قمة السواك
فاقبلوا أيها الاخوان
لا شيء غير الموت بالمجان !

(تدخل من الجهة المقابلة امرأة متقدمة في السن . يصلـــح عضو مجلس الادارة من جلسته ، ينتحنح ، ويستعد بالقلم والورق)

العضو : ماذا استطيع ان افعل من اجلك ايتها السيدة ؟

المرأة (تطرح امامه هويتها) : وماذا تستطيع ان تفعل من اجلي ايها السيد ، سوى ان تسجلني للعمل عندكم ؟ هل تستطيع ان ترد الي ولدي الذي قتل في حرب المناجم ؟ وزوجي الذي فقد رأســـه وساقه اليسرى في حرب اطارات السيارات ؟ وولدي الذي غرق فـي حرب البلاستيك ؟ وابنتي التي اغتصبت وذبحت في حرب النفط ؟ ماذا تستطيع ان تفعل من اجلي ايها السيد ، سوى ان تسمح لـــي بالحياة بقية عمري ، مقابل جنوني في مؤسستكم ؟

العضو (مصطنعا الوقار) : احسنت صنعا ايتها السيـــــدة الجليلة . لا مجال للاختيار امامنا ، يجب ان نعيش حسب الظروف التي يفرضها علينا الاعداء .. (ينقل بعض التفاصيل عن هويتها الى ورقة امامه . يمد يده بالهوية اليها ، ولكنه سرعان ما يردها كالملدوغ، ويضعها في درج مكتبه .. يشير نحو البوابة) .. تفضلي سيدتي بالدخول الى مكان العمل !.. (تفتح السيدة البوابة وتدخل قفص الجنون بصورة استسلامية ، ثم تغلق البوابة خلفها وتقرفص فـــي احدى الزوايا .. يدخل رجل اشعث ، متطوحا بشكل يدل عـــلى السكر .. يمد يده نحو الكتب ويقول بصوت ثمل) :

السكران : سجلني . سجلني فورا . ماذا يهمني الجنون ، ان كنت سأقبض منكم ثمن النبيذ ، بالقدر الذي يكفيني ؟ سجلني ايها الرجل ، وسأكون عندكم مواطنا صالحا ..

العضو (بقرف) : هويتك !

(بعد جهد يخرج السكران هويته ويرمي بها على المكتب ، ثم يتوجه فورا نحو البوابة ، يدفعها ويدخل ، مرتميا على المصطبة . تبقى المكتبة مفتوحة . يدخل شاب في مقتبل العمر ، تدل ملامحـــه وهندامه على انه عامل بسيط . يتقدم نحو المكتب بخطى مترددة ، وعلى وجهه ابتسامة حائرة ذاهلة)

العضو : لا حاجة للتردد ايها الشاب . تشجع وتقدم .

العامل : ياه ! الطقس هنا جميل جدا ، والمكان نظيف ، تدخله الشمس من كل ناحية ..

العضو : والمنظر رائع الجمال . أعطني هويتك .

العامل : هويتي . آه ! حقا انه منظر رائع ـ ولكن الهوية ـ عذرا ، فقد تخرجت من المدرسة حديثا ـ (ينظر عبر القضبان) ارى ان المتسجلين قلائل لحد الآن .

العضو : هويتك . هذه دفعة جديدة من المتقـــدمين للعمل . هويتك ايها الشاب .

العامل : تخرجت حديثا ، وانهيت خدمتي العسكرية . انه ، كما تعلم ، واجب لا مناص منه .

العضو : الهوية !

العامل : صحيح . الهوية ـ اعذرني ، فلكثرة ما تجولت بيـن مكاتب العمل ، ولكثرة ما طلبوا مني هويتي ـ كان العمل ينتهي بعد ايام ، واعود عاطلا ـ ولكثرة ما طلبوا مني ... ـ علي أن أعيـــل أسرة ايها السيد ـ هويتي ، فقدتها ـ فقدتها من كثرة ما طلبوهـــا مني ـ لا بد لي من العمل ، ولو بلا هوية !

العضو : لكننا بحاجة الى أية وثيقة تثبت شخصيتك ..

العامل : وثيقة . آه . معك حق .. (مستسلما) .. عندمـــا سرحوني من الجندية اعطوني وثيقة .. (يخرج من جيبه بطاقـــة ويقدمها بأدب الى العضو ، فيتفحصها وينقل منها بعض المعلومات . بصورة تلقائية وبعدم اكتراث يدسها في الدرج ، ويشير الى الشاب باتجاه البوابة المفتوحة دون ان ينظر اليها . يدلف الشاب مـــن البوابة بهدوء . يحيي زميليه ويجلس بجـــوار الحائط باطمئنان . يدخل شاب قوي البنية ، انيق المظهر ، ويتقدم من المكتب بخطى صارمة وواثقة ، دون ان تتبدل ملامح وجهه الجامدة . يخرج هويتـه وبطاقة التسريح من الخدمة العسكرية واوراقا اخرى ، يعلن عنهـــا بصوت مرتفع ، ويضعهـا على المكتب امام العضو) .

العضو (بابتسامة مترددة) : اذن ، فانت راغب في العمل لدينا .

الشاب (بلهجة خطابية) : لست طالب عمل ، فان وضعي المادي على احسن حال . لكنني متطوع . اجل ، متطوع ، عن قناعة وطيب خاطر ، لخدمة هذا المشروع الوطني الجليل ، وحبذا لو هرع اليكم جميع شبان هذا الوطن ، متطوعين ، بحماس وتفان ، من اجل هذه المنشاة المباركة التي تبشر بازدهار اقتصادي عظيم ، وبتقدم انساني رائع ، طالما حلمت بهما اجيالنا .. وانه لمن المؤسف حقا ، ان الكثيرين من اخوتنا ، آثروا الهجرة الى الاصقاع البعيدة ، بحثا عن الثراء ، غير عابئين بكرامتهم القومية ... (يكون السكران قد صحا بعض الشيء ، ونهض متثاقلا ثم اقترب من القضبان وامسك بها بكلتا يديه . ولا يكاد يسمع الشاب المتحمس وهو يلفظ كلمة « القومية » حتى يصرخ من الداخل)

السكران : ظظ !

الشاب (مواصلا) : وكبريائهم الوطني ..

السكران : ظظ !

الشاب (مواصلا) : اللذين تدوسهما اقدام الاجانب !

السكران (مقهقها) : مجنون !!

الشاب (مواصلا) : مرحى لكم .. مرحى .. وآلف مرحى .. ولنا النصر !! (يدخل القفص بحماس ، بينما يرافقه العضو بنظرة دهشة ... يلتفت اليه الشاب بامتعاض)

الشاب : ولماذا تتركون هذه البوابة مفتوحة ؟ يجب ان تكون موصدة دائما ، حفظا لامن المؤسسة وسلامة الجمهور ، واحتراما لوقار الرسالة التاريخية الخالدة ! (يصفق البوابة بعنف ، ويقف بجانب احد الجدران .. في هذه اللحظة يدخل الصناعي ، وعليه دلائل الارهاق)

الصناعي (الى العضو) : كيف الحال ؟

العضو (متزلفا) : الحمد لله ، بخير . اشكرك على الاهتمام !

الصناعي : اقصد ، كيف حال العمل ؟

العضو : على اكمل وجه (يشير الى القفص) : هذه دفعة جديدة .. سبقتها دفعات عديدة .. كما يرام !

(يدخل شاب متقلص الملامح غاضب النظرات . يفاجأ الصناعي وعضو مجلس الادارة ، ويسألانه بدهشة) :

الاثنان : من انت ؟ هل جئت لتسجل نفسك ؟ ماذا تريد ؟

الشاب الغاضب : « من انا ؟ » .. ايها السفلة ! « هل جئت لاسجل نفسي ؟ » .. أيها المجرمون !.. واخيرا ، « ماذا أريد ؟ » ! أريد ان يعلم العالم من انتم .. اريد ان يفهم هؤلاء الذين يؤدون وظيفة المجانين ، وهؤلاء الذين اتوا الى هذه القاعة ليشهدوا مسرحيتنا .. اريدهم ان يفهموكم على حقيقتكم .. يا من تدمرون ازهار العالم كلها لتطيبوا ذفونكم الحليقة ! يا من تحرقون قارة لتشعلوا سجائركم الفاخرة ! أريد ان احذركم من مغبة جرائمكم ! لن تفلحوا في جعل هذا الشعب بأسره شعبا من المجانين !.. « قد تجعلون شخصا واحدا مجنونا الى الابد ، وقد تجعلون الشعب برمته مجنونا ليوم واحد ، ولكنكم لن تستطيعوا جعل الشعب برمته مجنونا الى الابد ! » ..

المجانين : وما شأنك انت بنا ؟ نحن راضون بحالنا . واننا لنجزل الشكر لهؤلاء السادة الذين يوفرون لنا متطلبات الحياة ..

الشاب الغاضب : ان جنونكم نذر عليهم ارباحا طائلة .. ومتطلبات الحياة حق لكم لا منة عليكم ! هم وحدهم الذين يستفيدون من جنونكم ، ولا ... (يطغى على صوته صوت الصناعي وعضو مجلس الادارة)

الصناعي والعضو : اخرس ايها المحرض الوغد .. يا عدو الازدهار والتقدم ، ويا مخرب الامن والنظام ! بأي حق تعتدي على حرية الناس في اختيار ما يشتهون ؟ (يهتفان الى الخارج) .. انت، هناك ! ايها الشرطي المرابط بالباب ! باسم القانون والعدل والنظام، نأمرك بطرد هذا المجنون من هنا !

المجنون المتطوع (ملوحا بقبضته من وراء القضبان) : بل ، فليعاقب على خيانته !

(يدخل شرطي ويجر الشاب الغاضب ، بالقوة ، الى الخارج ، وهو يكم فمه بكفه ليمنعه من الصراخ ... يدخل ثلاثة رجال في صف منتظم . يقتربون من المكتب بخطى عسكرية ويؤدون التحية . يجمع الاول هوياتهم ويقدمها برصانة الى الصناعي الذي يناولها بدوره الى عضو مجلس الادارة لتسجيل التفاصيل .. يدخل الرجال الثلاثة القفص ، ويغلق الصناعي الباب عليهم بالقفل ، ثم يسند ظهره الى القضبان بارتياح ، ويبتسم للعضو الجالس وراء المكتب ، ثم يدنو من المكتب بخطى هادئة ويجلس على طرفه ... ينظر الى جمهور المتفرجين مبتسما . يشير اليهم باحدى يديه ويشير بالاخرى الى المجانين) .

المجانين (ينشدون) .

يكون مارستانا او لا يكون
ماذا اذن نختار
أيتها الاقدار
نختار مجد الموت ام مجد الجنون ؟!

المجنون المتطوع :

نختار ما يختار
أبطالنا الرواد
فلتكبر الامجاد
على خطوط النار !

المجنون السكير :

أختار كأس الخمر
فلتكن الاعناب
من شجر الاعصاب
او من كروم الجمر ..
أختار .. كأس الخمر !

المرأة اليائسة :

فقدت في مكاتب القياده
سنبلتي الخضراء
ووردتي البيضاء
فما الذي تفعله الاراده
لقشة عزلاء
على أعالي الريح والبحار ؟

الجميع :

يكون مارستانا او لا يكون
ماذا ترى نختار
أيتها الاقدار ؟
نختاره .. نختاره ، مجد الجنون !

(يعتم المسرح)

الحركة الرابعة

(مكتب الصناعي . عدة مزهريات وزجاجات ويسكي على المائدة وعلى المكتب والرفوف . مكان صورة العشاء السري صورة كبيرة للمسيح مصلوبا . زالت علامة السؤال عن صورة الدماغ البشري وحل محلها سيف ، او اية قطعة سلاح اخرى . الصناعي نائم في مقعده وراء المكتب . يرن جرس التلفون ، فيستيقظ ، ويلتقط السماعة بكسل)

الصناعي : ماذا حدث يا عزيزتي ؟ ألا يحق لي ان ارتاح قليلا بعد التعب المضني والسهر القاتل ؟.. ماذا تقولين ؟ زوجتي توفيت؟! يا للكارثة .. (يمسد جبينه ووجهه براحته ، تحت ضغط الصدمة)

ولكن .. (يعيد السماعة الى مكانها ببطء) .. ولكن .. في هذا الوقت بالذات ؟! لقد ضربت موعدا للاجتماع بأولاد القحبة الوزراء ، فما العمل ؟ (وكأن ضميره وبخه) .. ليذهب العمل الى جهنم .. لقد أهملت زوجتي المسكينة اكثر مما يجدر بي ان افعل .. غبنتها حين لم اوزع وقتي بينها وبين العمل ، بالعدل وبالقسطاس .. يا لي من خاطىء انيم (يجهش بالبكاء) عفوك يا زوجتي الغالية .. عفوك يا شريكة حياتي الوفية .. اية دموع تكفي لغسل اثمي ؟ وأية أحزان تكفر عن خطيئتي ؟ لتنخل السماء عني ، ولتنتقم لك ملائكة الرب .. يوم كنت تتمزقين ألما في فراش المرض ، كانت اوجاعك تتلاشى على اصابعي ، وانا أقلب الاوراق النقدية ، في غيبوبة الصفقات واحلام الارباح المكدسة .. (يرتفع صوته بالبكاء) ما أشد حقارتي .. ما أشد حقارتي يا اقرب الناس الى قلبي .. يا حبيبتي وصديقتي .. لتكن ايامي جحيما من بعدك ! (يرن جرس التليفون . يتردد قليلا ثم يرفع السماعة) .. وزير الدفاع مشغول بشركة تسويق الخضروات ! وما علاقة الخضروات بشؤون الامن والدفاع ؟ حين رويت له نبأ الوفاة تغيرت لهجته ! وماذا قال ؟.. سيحضر ليعزيني ، ولنتحدث في الموضوع ، بهذه المناسبة ؟!.. لكن .. لكن (يتردد) حسنا ، ماذا استطيع ان افعل ، ما دام قد قرر ذلك ، لتكن مشيئة الله .. سأنتظره .. (يعيد سماعة التلفون الى مكانها ، ويتهاوى على احد المقاعد مرهق الاعصاب ، غامرا وجهه بكفيه .. يرتفع صوت من الخارج بالغناء)

الصوت :

في شقوق الصخور الغريبة
أورقت زهرتان
والشذى مهرجان
فاذكري موعدي يا حبيبه

*

الصباح انتظار
والمساء انتظار

*

عاد رف السنونو .. رماد.
مرة رابعه
والاغاني رماد
والصدى فاجعه

*

الصباح انكسار
والمساء انكسار
في شقوق الصخور الغريبه
صوحت زهرتان
وانتهى المهرجان
صيحة في البراري الكئيبه ..

(يقرع الباب ولكنه يظل على وضعه .. يقرع الباب ثانية ، فيبعد كفيه عن وجهه ويهتف بضعف)

الصناعي : ادخلي !

(يدخل ثلاثة رجال ، لا يكاد الصناعي يبصرهم حتى يهب واقفا مرحبا بهم ، ولكن بانكسار وأسى) ... سيدي رئيس الوزراء ! انك تمنحني شرفا رفيعا بهذه الالتفاتة النبيلة .. معالي وزير الدفاع ! مرحبا بك . المكتب مكتبك . ولك جزيل شكري وتقديري يا فخامة وزير المالية . تفضلوا . تفضلوا بالجلوس ..

رئيس الوزراء (بوقار) : باسم الحكومة ، اود ان اقدم لك أحر التعازي بوفاة الزوجة العزيزة ..

وزير الدفاع : لقد هزتنا المصيبة من الاعماق .

وزير المالية : كانت زوجة فاضلة . برحمها الله .

الصناعي : شكرا لكم يا سادتي الافاضل . ان كلماتكم الحارة تمنحني العزاء ، وتشجعني على مواصلة الحياة ، ما بقي لي من عمر .. (ينظر رئيس الوزراء الى زجاجات الويسكي ويهز رأسه)

رئيس الوزراء : ارى انك تكثر من الشرب ، وانا افهم شعورك واحترمه . حقا ، ان قليلا من الخمرة ينسي الانسان بعضا من همومه !

وزيرا الدفاع والمالية : لا شك في ذلك ..

(يهرع الصناعي فيملأ ثلاثة اقداح يقدمها لهم ، وبعد تردد يملأ قدحا لنفسه ..)

رئيس الوزراء (رافعا الكأس الى فمه) : لها الرحمة !

(يجرعون كؤوسهم دفعة واحدة)

وزير المالية : انه مشروب فاخر ، بلا شك .. (يتناول زجاجة بنفسه ويملأ الكؤوس الفارغة)

وزير الدفاع : لا يكفي ان الانسان يفقد اقرب الناس اليه .. بل ان شؤون العمل تنعقد من حين لآخر ، ايضا ! (يجرعون الكؤوس دفعة واحدة)

الصناعي (بمسكنه) : أصبت . حقا ، أصبت يا معالي الوزير. نقدم للبشرية زهور اعمارنا وزبدة نجاربنا ولا نقابل الا بنكران الجميل !

وزير المالية : الزهور ، والزبدة ، تلك هي المشكلة !

رئيس الوزراء : اذن ، فالدول المجاورة تسبب لكم الصداع .

الصناعي : وأي صداع ؟ الوضع لا يطاق ! ابدا . يجب الرد على هذا التصرف الغوغائي الاستفزازي !

رئيس الوزراء : ويحسن ان يكون الرد حاسما ..

وزير الدفاع : عليّ أنا الشؤون الستراتيجية .. وساختار للمسائل التكتيكية خيرة الجنرالات الذين تخرجوا من معاهد الحضارة الحرة والحرب الحرة .. وهي ، كما تعلمون ، معاهد ذات تجارب غنية في فنون الحرب ..

وزير المالية : وسنشنها حربا صاعقة .. بليتس كريغ !.. بأحدث الادوات ، وبخيرة الانجازات التكنولوجية

رئيس الوزراء : وسيكون امرا مؤسفا للغاية ، ان نضطر لقتل ابنائهم في سبيل تمدينهم ... ان للرقي ثمنا يجب ان يدفعوه .. ومن جهتنا نحن ، فلن نقصر في تأدية رسالتنا الحضارية التاريخية.

الصناعي : بكل جهل وصفاقة ، يعلنون انهم يقاومون الابحاث السيكولوجية ، ويرفضون الجنون !

وزير الدفاع (ساخرا) : يستطيع الطفل ان يبكي .. ولكن واجبنا يحتم علينا ان نطعمه !

وزير المالية : وليكن واضحا ايها السادة ، انه ينبغي على الشعب ألا يلزم اللامبالاة حين نخرج للكفاح في سبيل رسالته الحضارية .. هنا يبرز دور وزارة الاعلام . وحتى نضمن لانفسنا التوفيق في تعبئة الجماهير ، ينبغي علينا ان نلقي اعباء وزارةالاعلام على واحد من خيرة جنرالاتنا ..

وزير الدفاع : وبتحتم على جنرال الاعلام ـ افصد ، وزير الاعلام ـ العتيد ، ان يجتاز دورة في خصائص الجنون وفوائده ..

صوت من القاعة : مرحبا يا فيتامين البطالة !

صوت آخر : صباح الخير يا اكسير الغلاء !

رئيس الوزراء : بلا شك .. ولكن ، الا تعتقدون ان عسكرة الوزارات قد تسحب زمام الحكم من ايدينا ؟

اصوات من الخارج : وو .. و .. و .. و !

وزير الدفاع : هل تعني انك لا تثق بضباطنا الشرفاء ؟

اصوات من الخارج : وو .. و .. و .. و !

رئيس الوزراء (مرتبكا) : ابدا . ابدا . لا اعني ذلك . فانت أدرى الناس بتقديري لهم .. ولكن ...

وزير الدفاع (مقاطعا) : ان مصلحة الامن والسلام والازدهار تفرض علينا اتخاذ اجراءات استثنائية .. انها مشيئة السماء ، فلنكن عند حسن ظن الارباب ! (يبدو الحرج على ملامح رئيس الوزراء مما يدفعه الى انقاذ موقفه)

رئيس الوزراء : اجل يا حضرة وزير الادبان ـ اعني ، وزير الدفاع ـ ولنكن عند حسن الظن ، بعضنا ببعض !

وزير المالية : نشرب نخب حسن الظن ، والثقة المتبادلة !

(الصناعي يملأ الكؤوس ويوزعها)

وزير الدفاع : ان اصدقاءنا الاحرار على استعداد لتزويدنا بالسلاح ، بالقدر الذي نريده ، وباسعار معقولة !

وزير المالية : وشعبنا واع ، وسيكون واعيا الى ابعد الحدود ، وسيسعده ان يشد الاحزمة ويطلق النار !

رئيس الوزراء : اذن ، فقد اتفقنا ، ولم يبق سوى تحديد الموعد لضرب هؤلاء المتخلفين ، الذين يجهلون حق المجانين في الحياة الحرة الكريمة ، وحق العلم في تطوير اجهزته كما يشاء .

الوزراء : اتفقنا !

الصناعي (متأخرا عنهم قليلا) : اتفقنا ! (يرفع سماعة التلفون ويخاطب سكرتيرته) .. ايتها السكرتيرة الجميلة .. انشري في جميع الصحف ، ان زوجتي تشكر جميع الذين شاركونا الاسى بوفاتها .. وتقديرا لمشاعرهم الطيبة ، فان زوجتي العزيزة تدعوهم الى حفلة ساهرة في منزلنا ..

اصوات من الخارج : زوجته ماتت الى الابد .

الصناعي : ومن المستحسن ان تكون الحفلة تنكرية .

اصوات من الخارج : ماتت ! ماتت الى الابد .

الصناعي : وستعد لهم زوجتي كل ما يشتهون .

اصوات من الخارج : زوجة اخرى تفمر العالم بنسلها .

الصناعي : وسيكون منزلنا معرضا للزهور والفرح .. (يواصل الكلام دون ان يسمعه احد ، بينما تتكلم الاصوات من الخارج)

اصوات من الخارج : الشمس اختارت عريسها .. نسل جديد يغمر العالم .. أسرة جديدة تخرج بالبذار ! (الصناعي يعيد السماعة الى مكانها ويفرك كفيه بفرح)

الجميع (ينشدون) :

طوبى لكم ، فكل نفس هالكه
والفرق ، في مهابة الجنازه
طوبى لكم ، فالسادة الملائكه
من هذه الساعة ، في اجازه

يا مغلق الابواب
في وجه هذي الكف
احكم ارتاج الخوف
فالنار في الاخشاب

طوبى لنا ، فقد عقدنا عزمنا
وعزمنا ، رسالة مباركه
فشاركونا ، شاركونا حلمنا
الموت والحياة ، في المشاركه

هيا الى الطبول
يا امم المؤخره
فنحن ، اذ نصول
زوبعة مدمره !

(يعتم المسرح)

الحركة الخامسة

(احدى غرف المارستان . المصطبة مزدحمة بالمجانين الذين يجلسون على الارض وقد أراحوا جباههم على ركبهم وشبكوا ايديهم حول سيقانهم .. في الممر ، خارج القضبان ، يتمشى الصناعي وهو يقلب احدى الصحف بارتياح واضح)

الصناعي : كنت واثقا من ذلك سلفا . لا بد للحرية ان تنتصر ، ولا بد للحضارة ان تدر الربح الذي يليق بها ..

شتاء ، ربيع ، صيف ، خريف .. والعقل يظل شابا ، والاطراف متنبهة الى ابعد خلاياها ..

كنت واثقا من ذلك ، لان دفعة جديدة من مدققي الحسابات تبحث عن عمل .. والتصاميم الجديدة تبحث عن مجالاتها الطبيعية .. مسكينة زوجتي ، ومسكينة سكرتيرتي .. أيهما ماتت ؟ وأيهما تقاسي الداء المزمن ؟ (ينعم النظر في احد الانباء) عدد القتلى يفطر القلب .. هذا صحيح تماما ، غير ان الحرب هي الحرب !

طوبى لمناجم الجنون ، وطوبى لمدققي الحسابات .. مرحبا بكم ايها القتلى والاسرى .. مرحبا بكم ! (وفي هذه اللحظة يدخل الموزع، ويبدو انه سمع العبارة الاخيرة)

الموزع (منقبضا) : وبكم ايها الصديق العزيز .. (يأخذ الصحيفة من الصناعي ويقلبها قليلا ثم يعيدها اليه) .. صحيفتك قديمة ايها الصديق !.. أولم تقرأ آخر الانباء ؟ لقد اختل ميزان الامور ، والظواهر ترفض المجاري التي رسمناها لها . هؤلاء الملاعين حشدوا طاقاتهم من جديد ، وما زالت صحفهم واذاعاتهم تؤكد ان الجنون لن يمر !.. وكل التقارير الواردة من الجبهة تشير الى ان الوضع الراهن اصبح ورطة حقيقية .. المعارك الاخيرة مدعاة للقلق.. (يشيح عن الصناعي بذهول) بين الحياة والموت يكون النزع .. ونخطىء اذا نحن اعتبرنا النزع جزءا من الحياة يستحسن ان يطول.. يجب ان نأخذ بالحسبان فظاعة الالم وطعم الروح المترددة على الشفتين .. وينبغي ان نتصور منظر الحياة وهي تسيل كالماء من بين اصابعنا النحيلة (يضغط صدغيه براحتيه) يا للفظاعة ! ابدا . ابدا . لن يحدث ذلك .. فليكن الموت حاسما ، وليتوزع بالعدل وبالقسطاس ، لنا ، ولهم !

احد المجانين (ينهض ويمسك بالقضبان) : من هناك ؟ ايها السادة ! عشيت ابصارنا لشدة ما حدقنا في الظلام .. ولكن اسماعنا ازدادت رهافة .. لقد قبلنا باداء دور المجانين ، ولكن نصوص الاتفاقية لا تلزمنا بالصمم والبكم .. قبلنا بالعمل كمجانين ، لكننا لم نلتزم بتقديم الموت .. من هم اولئك القتلى الذين تتحدثون عنهم ؟ ولماذا قتلوا ؟ وأين ؟

الصناعي : ان للجنون ثمنا .. دفعنا لكم حصتنا منه ، فادفعوا لنا حصتكم .. من لا يملك النقود يملك الدم .. هذه هي المعادلة !

المجنون المتطوع (يهب واقفا ملوحا بيده) : هذه هي المعادلة ، وهذا هو العدل : نقود مقابل الجنون ، ودم مقابل النقود .. (صارخا بصورة هستيرية تدل على انه اصيب بالجنون الفعلي) مرحبا ايها المجد ! مرحبا .. ايها المجد !! واهاما يا بيارق العظمة والخلود ! (يسقط على الارض مغمى عليه) .

مجموعة من المجانين : ونحن نعلن لكم ايها السادة ، اننا اكتفينا بما استحق لنا من المال ، مقابل عملنا في مؤسستكم . نريد ان نسترد عقولنا وهوياتنا ، ونخرج .. نريد ان نخرج من هذا المكان. نريد ان ندفن اموتانا ، وننسل ابناء يملأون منازلنا وحقولنا المهددة بالبوار والهلاك !

الصناعي (الى الموزع) : أتسمع ؟ يريدون الخروج من هنا ! هؤلاء المجانين يريدون الخروج من هنا ! الا يعلمون انهم يدمرون اقتصاد البلاد لو سمحنا لهم بالتصرف كما يشتهون ؟

الموزع (مشجعا) : لا تقلق يا عزيزي . كل شيء في ايدينا . الجيش ، في أيدينا . الشرطة ، في ايدينا . السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية .. كلها في أيدينا .. لا تقلق يا عزيزي !

المجانين (يصرخون) : نريد ان نخرج !

الصناعي : ان القانون ، هو الذي يحكم هذه البلاد ، وهو الذي يقرر كل ما يجري فيها .. فلنحتكم الى القانون ! (الى الموزع) أسرع ايها الرجل ، وأحضر لنا لجنة تحقيق ، قوامها الاطباء والضباط والقضاة ، ولتحسم تلك اللجنة القانونية في أمر هؤلاء المجانين . (يهرع الموزع الى الخارج) .

المجانين : نريد .. ان .. نخرج .. لقد تعبنا .. تعبنا ! (صمت) شبعنا جنونا .. شبعنا مالا ودما . دعونا نخرج من هذا المكان .. (صمت ، وبعد قليل ينشدون في حزن) :

في لازورد السماء
أصابع معقوفه
سحتّت عليها الدماء
من أعين ملهوفه
مالت على صدورها السنابل
مالت على حقولنا البعيده
ونحن مشدودن بالسلاسل
الى رتاج الرؤية الموعوده

عودي طيور الصباح
عودي من الادغال
عودي ، فان الجراح
ورد على الافعال

مدافن بيضاء في الحديقة
مدافن بيضاء في الساحات
فاستيقظي مملكة الاموات
ثارت على أسمالها الحقيقة

(بعد قليل يدخل الموزع وخلفه جماعة في أرديه الاطباء البيضاء وفي جبب القضاة السوداء ، وفي البزز العسكرية المغطاة بالنياشين والرتب) .

الموزع (بلهجة خطابية) : لجنة التحقيق الموقرة !

الصناعي (كالغريق الذي افلح في وضع يده على الشاطىء) : هه ! العدل المناسب ، في اللحظة المناسبة !

ضابط الشرطة : ماذا يجري هنا ؟

الصناعي : انهم يتمردون ، ويزعمون انهم ليسوا مجانين !

ضابط عسكري : ما هذا الهراء ؟ لو لم يكونوا مجانين ، لما كانوا هنا !

طبيب (بلهجة علمية صارمة) : في كثير من الحالات ، يتصور المجنون نفسه عاقلا ، وقد يخدع الكثيرين ويقنعهم انه عاقل بالفعل.. ولكن الطب لا تنطلي عليه مثل هذه الحالات ..

الصناعي والموزع : عاش الطب الذي لا تنطلي عليه مثل هذه الحالات !

طبيب آخر : هناك حالات من نوع آخر ، حيث تنجح اجهزة الجسم في التغلب على الخلل العصبي لفترة محددة . في تلك الفترة يكون المريض عاقلا بالفعل ، ولكن هذا التوازن سرعان ما يختل، ويعود المريض الى وضعه السابق ..

الصناعي والموزع : عاش الوضع السابق !

قاض : ولكن ، ألا يحدث احيانا ان يشفى المريض تماما ، بحيث يجوز اطلاق سراحه حتى يمارس الحياة الطبيعية كما ينبغي ؟

(يقترب الصناعي خلسة من الطبيبين حتى يحاذيهما تماما . يخرج من أحد جيوبه رزمتين من الاوراق المالية ويدسهما في جيبي الطبيبين ، دون ان يلحظ ذلك احد من الحاضرين ، باستثناء الطبيبين اللذين ينحسسان النقود قبل أن يردا على القاضي ، بصوت واحد) .

الطبيبان : انت على صواب يا سيدي القاضي .. لكن حالات الشفاء التام نادرة .. (يتفحصان وجوه المجانين عن بعد) .. وكما نرى فلا مجال هنا لاطلاق سراح احد من نزلائنا هؤلاء ..

(يكون الموزع قد اقترب من القاضي المتسائل ، ودس في جيبه رزمة من الاوراق المالية ، بالشكل الذي سبقه اليه الصناعي مع الطبيبين)

القاضي : آه . لقد فهمت . فهمت تماما ، وبصورة مقنعة للغاية ، فشكرا !

الصناعي (بارتياح) : اذن ، فقد انتهت مهمة لجنة التحقيق الموقرة ، التي قررت ان هؤلاء السادة (مشيرا الى المجانين) هم مجانين بالفعل ، وبموجب القانون المعمول به في بلادنا الديمقراطية، ينبغي عليهم ان يستقروا في هذه المؤسسة الانسانية ، الى ان يشفوا تماما ! (يأخذ اعضاء لجنة التحقيق في الانصراف ، بينما يضرب « المجانين » قضبان معتقلهم بصحون الطعام المعدنية ، وهم يصرخون)

« المجانين » : زور وبهتان ! لسنا مجانين ! لقد خدعونا ! خدعونا ايها الناس ! خدعونا ايها العالم ! دعونا نخرج من هنا .. نحن نرفض هذه المؤسسة الشريرة .. نرفضها ! نرفضها !! (يشتد هيجانهم وصراخهم ، وتشتد ضرباتهم على القضبان وعلى البوابة.. يهرول الصناعي والموزع ، كل من احدى جهتي المسرح ، وهما يصرخان)

الصناعي والموزع : الشرطة ! الجيش !

(يتمكن « المجانين » من خلع البوابة والقائها على المصطبة ، ويتدافعون للخروج وهم يصرخون)

« المجانين » : الحرية ! الحرية !
الحرية ! والسلام !

(تندفع في هذه اللحظة قوات من الجيش والشرطة وتعيد المتمردين الى ما وراء القضبان ، ثم ترفع البوابة وتعيدها الى مكانها وهي تقاوم ضغط المتمردين . تربط الشرطة والجيش البوابة بالسلاسل وتدعم القضبان باخشاب وجسور معدنية ، بينما يواصل المتمردون ضرب القضبان والسلاسل بقبضاتهم وصحونهم ، وهم يهتفون بأعلى أصواتهم) .

« المجانين » : لسنا مجانين ايها الناس !
أيها العالم لسنا مجانين !
سنخرج من هنا !
سنهدم هذه المؤسسة على رؤوس المجرمين ..
سنهدمها على رؤوسهم !

« نجحوا في جعلنا جميعا مجانين الى الابد ! » .. نريد ان نخرج من هنا (يمدون ايديهم بعنف عبر القضبان) يا من تجلسون في هذه القاعة ! ايها الناس جميعا ! مدوا لنا ايديكم ! ساعدونا ! ساعدونا على الخلاص !!

(يعتم المسرح)

عن « الجديد » بحيفا

سميح القاسم